ذكريات مع الشيخ عبدالله الخليلي

الحلقة الأولى

أحمد الفلاحي

شاعر ملأ الدنيا العُمانية وحلق في كل سماواتها هو الشيخ عبدالله بن علي الخليلي وهو شاعر عمان الأول في القرن العشرين لا يطاوله مطاول ولا يسمو لرتبته شاعر عماني فكل شعراء عمان في زمنه يقرون له بالسبق والأولية ويضعون أنفسهم بعده على الدوام وإذا كان أبو مسلم هو الرمز الأعظم للشعر العُماني المعاصر بلا منازع فالشيخ عبدالله الخليلي يجيء بعده مباشرة وقد تسيد شعره الساحة العُمانية لما يقرب من ثلثي قرن ولقد قلت مراراً وما زلت أعيد القول أنه لو ظهر في عواصم العرب الكبرى كدمشق والقاهرة وبيروت وبغداد لكان من أعلام الشعر العربي الذين تضرب بهم الأمثال من أضراب شوقي وبدوي الجبل والأخطل الصغير والجواهري وغيرهم ولكن المكان العُماني المنغلق والمهمش في تلك الفترة حال بينه وبين الذيوع والشهرة التي يستحقها كما حال بينه وبين الحداثة والنظرة العصرية في الكلمة والصورة والجملة الشعرية. ومع ذلك كانت نفسه نزاعة منذ بداية تجربته لكسر الطوق والتواصل مع الديار العربية ومع قضايا العرب من قضية فلسطين التي هي قضية العرب المحورية إلى قضايا العرب الأخرى كمثل ثورة الجزائر وثورة يوليو في مصر وغيرها من الأحداث العربية المهمة في تلك اللحظات المبكرة. وسعيه لإثراء حصيلته المعرفية بقراءة رموز الشعر والأدب في محاولة لتجاوز الموروث والتعلق بالجديد والإصرار على ملامسة أشكال الكتابة الحديثة التي لم تكن معروفة في الأدب العُماني من قبل كالقصة القصيرة والمقالة وحتى الرواية وتجريب الخروج من شعر العمود إلى شعر التفعيلة كما في ديوانه □على ركاب الجمهور» وكل ذلك كان محاولة للتجديد في اللغة والأسلوب وتجاوز القديم. وأذكر مقابلة أجراها معه الأستاذ حمود السيابي لمجلة «الثقافة الجديدة» التي كنا نصدرها من خلال «النادي الوطني الثقافي» ونشرناها في العدد الثالث عشر من تلك المجلة المؤرخ في مايو ١٩٧٨ وكان من قوله في تلك المقابلة «أضفت للأدب العُماني الشعر الحر وأدخلت فيه القصة الشعرية» هل وفق شاعرنا في الوصول إلى عمق قصيدة العصر؟ وهل استطاع الإنفلات من بيئته التي نشأ فيها ولغته التي تشربها؟ دعونا نقول إلى أي حد أمكنه فعل ذلك؟ تلك قصة أخرى لقد حاول الرجل ونجح في بعض الحالات وربما لم تسعفه ذائقته وفهمه للأشياء في حالات أخرى وهو على أية حال إبن زمنه وبيئته وثقافته وكان هو نفسه كثيرًا ما يشير إلى ذلك في بعض كتاباته ورودوه على محاوريه. لقد كان محباً للشعر العربي منذ نعومة أظفاره وقد قال في تلك المقابلة التي أشرنا إليها للتو «عرفت شوقي وناجيت حافظ وغنيت مع الأخطل وترنمت بقصائد الرصافي وجلست مع المتنبي وحرصت على معايشة الشعراء حتى كاد لم يفتني بيت شعري في ديوان»

وفي حوار أجريته معه لم ينشر حتى الآن للأسف لأن مجلة «الغدير» التي كان الحوار لها قد توقفت أشار إلى انه يقرأ لنزار وصلاح عبد الصبور والشابي وأبو ريشه والبردوني إضافة إلى قائمة من شعراء العربية منذ الجاهلية إلى العصر الحاضر ومهما كانت رغبته في الاقتراب من الجديد والإتيان بالمستحدث إلا أنه ظل في المقام الأول شاعر القصيدة العمودية وفارسها المميز بلغة جزلة فخمة وتراكيب وصور أغلبها إلى القديم أقرب

وفي هذا الحوار قال بالحرف:- «المجتمع المتدين الذي عايشته موغل في أعماق العربية الفصحى ولم يتم لي كثيرًا الاختلاط بالشعراء العرب الأشقاء وغالب من اختلطت بهم لم يخرجوا من دائرة التقليد القديم وعباراته المألوفة» فهو يقولها صراحة إنه إبن مكانه ومجتمعه. ولعل شعره أغلبه من النوع المتين الذي يصعب على غير الخبير الولوج في ساحاته واقتحام صوره وتركيباته ومعانيه وذلك لثقافته العربية العالية وإحاطته باللغة وأسرار البيان. وقد طرق الشيخ عبدالله الخليلي جميع أغراض الشعر التي عرفها الشعراء العرب من غزل وفخر ورثاء وحكمة ووصف وغير ذلك وزاد عليها الإخوانيات والقوميات والاعتزاز بالوطن مما أظهره الشعر الحديث ولكنه ابتعد عن الهجاء ولم يقاربه وذلك لكرم نفسه وسمو أخلاقه الراقية ولم يتجه للمديح إلا بأقل القليل. وفي تقديري أنا أن أبلغ شعره وأعظمه هو ما قاله في التصوف والتوسل إلى ربه الكريم وفي مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم وشكوى الدهر ومعاناته ومواجهته وتحدي ضرباته الموجعة وله في الرثاء أنات باكية. وفي شعره ملمح ديني ملحوظ جاء من دراسته الدينية وتضلعه في الفقه ولكن شعره كما نعلم أبعد ما يكون عن شعر الفقهاء بل هو شعر الفحول النابغين من الشعراء وإن تخللته الألفاظ والمعاني الدينية. وقد أخبرنا أن أول أبيات قالها وهو في العقد الثاني من عمره كانت بمثابة رسالة إلى صديق يدعوه فيها لزيارة سمائل جاء فيها:-

هذي سمائل لإنتظار قدومكم
تزهو وتصبح كل يوم تزهر
كالروض باكره الحيا فإقاحه
ثغرو نرجسه عيون تنظر
والآءس من تحت النسيم كأنه
قد يقدمه الهوى ويؤخر
والياسمين على البنفسج طافح
والورد يفتحه الغمام وينشر

وكانت تلك الأبيات أول شعر قاله ثم توقف لفترة. وفي مرة تالية كان برفقة عمه الإمام الخليلي في ولاية بدية بالمنطقة الشرقية من عمان ضمن رحلة تفقديه يقوم بها الإمام للمناطق العُمانية المختلفة. وتبادر لطلبة

■ يقرأ لنزار وصلاح عبد الصبور والشابي وأبو ريشه والبردوني إضافة إلى قائمة من شعراء العربية منذ الجاهلية

العلم المرافقين للإمام أن ينظموا قصيدة في وصف وقائع تلك الرحلة كل واحد يكتب شيئًا ويسلمه لزميله ليضيف ما لديه فلما وصلت الورقة إلى الشيخ عبدالله كتب فيها عدة أبيات منها هذا الشطر الذي يقول فيه:-

«على سيرة حاذى بها سيرة النبي»

وقد أعجب القاضي أبو الوليد سعود بن حميد الذي كان حاضرًا بتلك الأبيات وكان شاعرًا فأسرع بها ليريها الإمام الذي علق بالقول ليته قال حاكى بدل حاذى. وتوقف الشاعر مرة أخرى لفترة قبل أن ينطلق عنفوان الشعر عنده إلى غير توقف. وأنا هنا سأقف وقفات متفرقة تنتقل من هنا إلى هناك ليس فيها الدراسة العميقة ولا التحليل الدقيق فذلك فوق طاقتي وأكبر من إمكاناتي وإنما هي مجرد وذكريات وإشارات وحكايات وأرجو عفوكم ان جاء حديثي ليس بالمستوى الذي تنتظرونه وتتوقعوه فكل إناء بالذي فيه ينضح والهدف الأساسي من ذلك هو تذكير الأجيال بشاعر ضخم ينبغي تذكره وتسليط الضوء على تجربته وهي واسعة ثرية وفيها جوانب متعددة يمكن لباحثينا وشبابنا الدارسين أن يضيؤوها ويبرزوا قسماتها وخاصة أولائك الذين يسعون للدراسة الأكاديمية من باحثي الماجستير والدكتوراه والذين أرى الكثير منهم يتهيب الاقتراب من شعر الشيخ عبدالله لما يرونه فيه من الجزالة والقوة والعمق وينصرفون إلى غيره الأقل منه مكانة وموهبة استسهالاً وسعيا لما هو أيسر وذلك أمر مؤسف وإنني هنا أود التوجه بالنداء إلى أبنائنا للغوص في شعر شاعرنا وفي مجالات أدبه المتنوعة. وكذالك أود الإشارة إلى أن شاعرنا الكبير يستحق أكثر مما حصل عليه من وزارة التراث ومن وزارة الإعلام ومن جامعة السلطان قابوس ومن جميع الجهات المعنية بالثقافة والفكر ومنها الصحافة والأندية.

الشيخ عبدالله الخليلي كان يحب التواصل مع الشعراء والأدباء الذين لهم عنده تقدير خاص يرتاح لمجالستهم والالتقاء بهم. وكل من كان يزور عمان من الشعراء والكتاب العرب يحرص على استضافتهم واستزارتهم. وقد سعى كثير من المشتغلين بالإعلام إلى لقائه وإجراء حوارات معه عن شعره وكتاباته وتجربته. أذكر منهم صديقنا الأستاذ عبدالوهاب قتاية وكان وقتها من نجوم تلفزيون وإذاعة أبوظبي وقد أجرى معه حوارًا موسعاً بثه في برنامجه □ شعراء من الخليج □ وصور بيته وبيئته السمائلية ثم عاد للقائه مرة أخرى في مقابلة طويلة أيضا بعد سنوات ولكن في برنامج أدبي آخر كان يعده بعد توقف برنامجه الأول . وممن زاره من الأكاديميين والباحثين د. نورية الرومي من جامعة الكويت وأجرت معه حوارات معمقة ونشرت عنه عدة مقابلات ودراسات في الصحافة الكويتية وأفردت لأدبه فصولا في كتبها عن أدب الخليج وكان لها بحث مطول عن شعر الغزل لديه نشرته في مجلة «البيان» الشهرية الكويتية التي تصدرها رابطة الأدباء في الكويت. ولدي شريط يحتوي مقابلة إذاعية أجراها معه مذيع كويتي في أوائل سبعينات القرن الماضي عن تجربته وشعره وحياته. ولا شك أن الصحافة ووسائل الإعلام غير العمانية قد أقامت معه حوارات كثيرة وللأسف قد ضاع الكثير من هذه التسجيلات المهمة. أما وسائل الإعلام العمانية على اختلافها فكان لها الحظ الأوفر من تلك الحوارات والمقابلات التي من حسن الحظ أن أغلبها ما زال محفوظا ولدي بعض من هذه الأشرطة وبعض المقابلات المنشورة في صحافتنا العمانية. وفي سياق الحديث عن حبه واشتياقه للقاء أهل الأدب الذين يحلون بالسلطنة نتذكر أنه في عام ١٩٨١ حينما أقيم الأسبوع الثقافي المغربي في مسقط حرص الشيخ على دعوة الشعراء المرافقين للوفد إلى بيته في سمائل مع مجموعة من الأدباء العمانيين وأولم لهم وليمة كبيرة وكان يوما ممتعاً أمضيناه معه في سمائل في حديث عن الثقافة والأدب والفكر وقراءة الشعر والتقاط الصور التذكارية وكان الضيوف المغاربة في غاية السعادة والإرتياح ومن بينهم على ما أذكر الشاعر علي الصقلّي والشاعر علي الود غيري وغيرهم. وكانت للشيخ الخليلي علاقات وطيدة مع مجموعة من الأدباء والشعراء من مختلف الديار العربية. ومنهم شاعر البحرين الكبير الشيخ أحمد بن محمد الخليفة وقد التقيا في مهرجان «الجنادرية» بعاصمة المملكة العربية السعودية «الرياض» في أوائل الثمانينات من القرن الماضي وأعجب كل منهما بالآخر. وأذكر هنا أن الشيخ أحمد الخليفة ظل يذكر ذلك اللقاء ويتحدث عنه في مجلسه. وفي وقت لاحق حين أصدر مجموعته الشعرية «العناقيد الأربعة» متضمنة دواوينه الأربعة التي كانت صدرت في بيروت في الخمسينات والستينات من ذلك القرن ونفذت

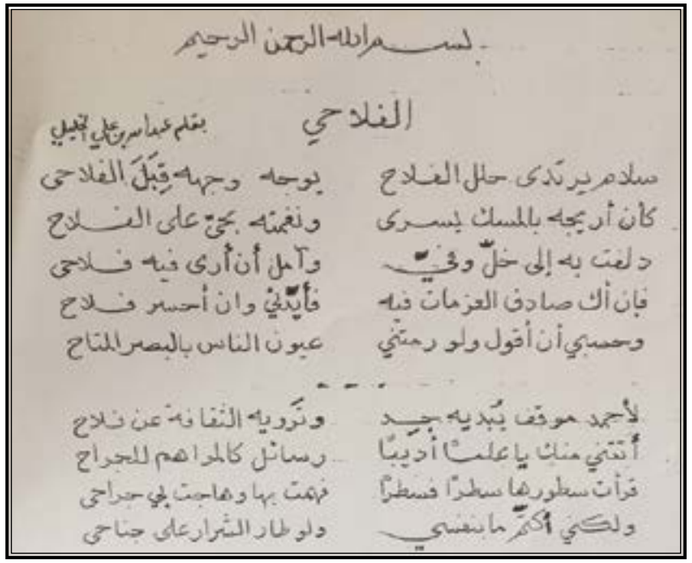
بسم الله الرحمن الرحيم

الفلاحي

بقلم عبدالله بن علي الخليلي

سلام مريدي حلل الفلاح ... يوجه وجهه قبل الفلاحي
كأن أريجه بالمسك يسري ... ونغمته بحي على الفلاح
دلفت به إلى خل وفي ... وآمل أن أرى فيه فلاحي
فإن أك صادق العزمات فيه ... فأيدني وإن أحسر فلاح
وحسبي أن أقول ولو رمتني ... عيون الناس بالبصر المتاح

لأحمد موقف يبديه جيد ... وتروية النفاة عن ضلاح
أتتني منك يا علما أديبا ... رسائل كالمراهم للجراح
قرأت سطورها سطرا فسطرا ... فهمت بها وهاجت في جراحي
ولكني أكتم ما بنفسي ... ولو طار الشرار على جناحي

طبعاتها أرسل نسخة إلى الشيخ الخليلي عن طريقي وكنت وقتها أعمل ملحقا ثقافيا في البحرين فرد عليه الشيخ عبدالله شاكرًا بأبيات جميلة جاء فيها:-

سليل محمد أتحفتينها
«عناقيدًا» حكت عقص الملاح
لمحت بكرمها ديوان شعر
رسا بين الأخوة والكفاح
رأيت سطوره فرأيت سحرًا
حلالاً مثله نشر الإقاح
فهام الشوق بي في كل واد
إليه وريضي يخشى جماحي

وقد بادر الشيخ أحمد الخليفة مجيباً فور إطلاعه على أبيات الشيخ عبدالله وجاء من ضمن أبياته الجوابية:-

قصيدتكم من الحكم الصحاح
حظيت بها الغداة من الفلاحي
ثملت بها من الأشواق حتى
كأني قد ثملت بكأس راح
رأيتك في «الرياض» وأنت تصغي
لهمس الشعر في طرب مباح
وارض عمان منبت كل حر
أديب نادر في كل ساح
إذا شئت القريض رأيت سحرًا
وليس عليك فيه من جناح
وإن ناديتهم لنهار روع
تعانقت الصوارم بالرماح
أيا رب البيان إليك مني
سلاماً حشوه عطر الإقاح

ولو عندي جناح طرت فورًا
إليك وجئت مسقط في الصباح

كما كانت للشيخ عبدالله صلات ومراسلات مع الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة الأسبق وكان شاعرًا أديباً ومن أبياته إليه يقول:-

يا صقر أنت على البُعاد أخ
يُدنيك صيتك والهوى الحر
يا صقر أنت الصقر هيجه
دون الطريدة قانص غر
فافخر بسلطان وأسرته
ولهم يحق بمثلك الفخر
مني إليك أخا العروبة ما
يعيى لديه النظم والنثر
يا صقر أذهلني بيانك إذ
شاهدته وكأنه السحر
يا صقر قد أسمعت ذا أذن
ما لم يكن في سمعها وقر

وكانت بينهما لقاءات متعددة حين كان الشيخ عبدالله يزور مصر بين الفترة والأخرى والشيخ صقر القاسمي كان مقيماً هناك منذ أن عزلته بريطانيا عن حكم الشارقة. وللشيخ الخليلي في الرد على رسالة من الأستاذ عز الدين التنوخي الباحث السوري المعروف:-

حيي دمشق ومن ربته منهمر
يهمي على غوطتيها الحين فالحينا
حيي التنوخي عز الدين صوب حياً
من رحمة الله تحدوه أمانينا

وللاستاذ التنوخي مع الشيخ عبدالله مراسلات تواصلت بعد قيامه بالإشراف على طباعة بعض الكتب العمانية وتحقيقها والتقديم لها تقديما أثار إعجاب العمانيين يومها لما فيه من جهد ملحوظ ومن إشادة بعمان وعلمائها وأدبائها وبمذهبها الإباضي الذي أبدى إعجابه به وتقديره الكبير لعلمائه في وسطيتهم وعدم تعصبهم المذهبي وانفتاحهم على مخالفيهم داعيا إلى الترحيب بهذا المذهب بين المذاهب الإسلامية باعتباره مذهبا إسلاميا أصيلاً معتدلا ولما يضيفه للفكر الإسلامي من إجتهادات وتاصيلات مهمة تثري هذا الفكر وتعزز منطلقاته وقد ذهب الشاعر أبو سرور في تلك الفترة إلى دمشق موفدًا من قبل الشيخ عبدالله ومن كبار العلماء للإلتقاء بالأستاذ التنوخي وتعزيز الروابط معه وقد حمل أبو سرور أثناء سفرته هذه مخطوطة كتاب العلامة الشيخ خلفان بن جميل السيابي المسمى (جلاء العمى في أحكام الدماء) لطباعته هناك ومنذ ذاك بدأت المكاتبات بين الشيخ عبدالله وبين التنوخي في حوار امتد عبر الرسائل المتبادلة وعند وفاة التنوخي رثاه الشيخ بقصيده معبرة حملت تعزيته لأبناء الفقيد قيس وإخوته كما تضمنت ثناءه عليه وتعديد مناقبه ومئاثره مشيدا بعلمه وفكره وتسامحه المذهبي وإنصافه لمخالفيه منوهاً بمساهمته المميزة في خدمة التراث العماني بتحقيق عدد من الدواوين الشعرية العمانية والكتب الدينية. ومن الأدباء العرب الذين ارتبط الشيخ بالصداقة معهم الشاعر الفلسطيني أبو حيدر علي هاشم رشيد الذي كانت إقامته في القاهرة وهناك تم التعارف بينهما وكان شاعرًا مجيدًا وهو شقيق شاعر فلسطين المعروف هارون هاشم رشيد وللشاعر أبو حيدر هذا قصيدة يحيى فيها ديوان الشيخ عبدالله المسمى «وحي العبقرية» وقد جاء في أبياتها:-

العبقرية وحيه ومتونه
لما تعانق سحره وفتونه
الصدق في الإحساس روح بيانه
أنعم بإحساس تخط يمينه
قد عاش موطنه الحبيب قصائدًا
وعمان فيها شعره وفنونه
أنشودة تدعى عمان بلحنه
وبقلبه كدم حواه وتينه

نبض واحد

عمر عبدالله محروس الصيعري

أسميك حبا؟، أنت بالحب أعرف
وما بيننا هذا الهوى والتصوف
أسميك نبضي؟ لو تخيرت مرة
سواك لكان النبض يدري ويكشف
ضبطت إشارتي عليك فلم أعد
أصرفها إلا إلى حيث تصرف
وبرمجت نفسي فيك ألف حكاية
مقاماتها من كل وجد تؤلف
أحاول أن أقفو البدايات، كلما
توغلت في النجوى تدق وتلطف
فما استوعبت معناك ألف قصيدة
لأنك من كل القصائد أشرف
أجلك؟ هذا بعض نزفي كشفته
وأبعاضه الأخرى بغيبك تنزف
أنا المنتهي في العشق. ما صنف لوعي؟
أنا العاشق المجنون، لا أتصنف
أنا ذلك المنسي فيك، قضيتي
تضج بها أدراج وجد وأرفف
فأي مقام الوجد أنكرت، هل أنا
سوى سفر وجدان وأنت المؤلف
جمعت تواقيع المحبين كلهم
وقدمتها أعلام و جد ترفرف
ورتبت أحزان الشوارع زينة
لتفهم أن الحب لا يتكلف
وأخفيت من خلف الشوارع أعينا
رمادية الألوان ترنو و تذرف
فهل أبصرت عيناك شيئا يسوؤها
هنا كل ألحاني بوجدك تعزف
أنا كل هذا الوجد. بعضي معقد
يحملني الشكوى. وبعضي ملطف
فسلني عن الأبعاض، تلك حكايتي
وتلك سؤالات تضج وتهتف
لأجلك أجلت السؤالات كلها
وأخفيت أوجاعا هنالك تعصف
وقدمت أوراق اعتمادي مفوضا
مقيما على الإخلاص لا أتزلف
وأعلم أني قد تقلدت منصبا
دقيقا كحد السيف لا يتنصف
ولو أن أوضاعي على قدر منصبي
لما كان معدوم هناك ومترف
أنا كل هذي الناس . نبض موحد
على ساعة الإسناد لا أتخلف
ضبطت عليك الوجد ليلة أنكرت
هواك قلوب مبغضات وخلف
فلما أفاق الصبح عفت مكاسبي
ولكن وجدي فيك لا يتعفف
تسطرني فيك السؤالات أحرفا
مزاجية الأعصاب لا تتكيف
ويحرجني نصف السؤال معلقا
بحلقي، ونصف في رموشي يطرف
فكيف غدا فيك السؤال محرما
وأنت إمام العدل قاض ومنصف؟!
تصادر أحزاني عليك مخاوفي
ويمنعني بوح المساحات مرجف
فهل أنثر الأحزان في كل شارع
لتعرف أني فيك غال ومسرف
وهل أرفع الوجدان لوحة عاشق
تشير إلى أني أنا المتطرف
أنا ذلك المحجوب خلف مشاعري
وخلف سؤال فيك لا يتوقف